

دور العرب الحضارى فى أفريقيا

للدكتور

شوقى عطا الله الجميل

قبل الحديث عن دور العرب الحضارى فى أفريقيا لابد من الاشارة
للملاقات العربية الافريقية — متى بدأت ؟ وكيف بدأت والى اى مدى
تطورت ؟ ؟

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحدد تاريخا معيناً لبداية الاتصالات العربية
الافريقية .

فمنذ أقدم العصور جاء العرب من شبه جزيرة العرب للساحل الشرقى
لافريقيا المواجه لشبه الجزيرة العربية ، واستقروا فى هذه المناطق الافريقية
وأصبح لهم تبادل تجارى مع السكان الأفارقة ، واستقر بعض التجار
العرب فى هذه المناطق الافريقية وكونوا امارات عربية نمت وازدهرت
بالتدريج ، وقد شهد بعظمتها وبتحضرها كل من زارها بعد ذلك من الرحالة
العرب والأجانب على السواء .

ولا نحتاج لتفسير لهذا الامتداد العربى للساحل الافريقى المقابل ، فإذا
علمنا أن المسافة بين عدن وزنجبار لا تتجاوز ١٧٠٠ ميل ، ومن مسقط الى
زنجبار لا تتعدى ٢٢٠٠ ميل — أدركنا أن الامتداد العربى لهذه الجهات
الافريقية كان شينا طبيعيا فالقبائل العربية القريبة من الساحل الافريقى
الشرقى أو كما عبر عنها كوبلاند بالجيران (Next Door Neighbours)
كان لابد أن تمت نشاطها وتجاريتها، وتنقل حضارتها الى سواحل افريقيا
الشرقية (١) .

وبالإضافة الى عامل الجوار فهناك عامل جغرافى مناخى آخر ساهم فى هذا الوقت المبكر بالذات — فى قيام هذه العلاقات بين العرب القاطنين بالجزيرة العربية وبين سكان السواحل الشرقية لافريقيا فى ديسمبر نهب الرياح التجارية من الشمال والشمال الشرقى ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية فبراير — ومن أبريل الى سبتمبر تنعكس المسألة فتهب رياح شديدة من الجنوب الغربى ، ولما كان الشاطيء الغربى للمحيط الهندى يتبع خطا مستقيما تقريبا متجها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من زنجبار الى مدخل خليج عدن فقد أصبح التجار الذين يبدأون رحلاتهم فى سفنهم الشراعية من الشاطيء العربى فى الشتاء يستعينون بقوة الرياح الذاتية فى سفرهم جنوبا صوب الساحل الافريقى ، أما فى اثناء عودتهم لأوطانهم فى الربيع — بعد أن يكونوا قد قضوا بضعة شهور فى التجارة — يجدون أيضا الرياح مواتية للاتجاه صوب الوطن الأسمى ، وبمضى الزمن أصبحت للتجار العرب والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها وأصبحت رحلاتهم من شبه الجزيرة الى الساحل الافريقى ومدة استقراهم بهذا الساحل تنظم تنظيما دقيقا حسب مواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم (٢) .

كذلك من الأسباب الرئيسية التى دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم (العمانيين ، والحضارمة — على وجه الخصوص) أنهم نشأوا فى بيئة بحرية مثالية فى جنوب الجزيرة العربية ظهرها طارد — فكان طبيعيا أن يتسللوا الى شرق أفريقيا فى مجموعات صغيرة — انتشرت فى المبدأ فى بعض الجزر الساحلية ثم أخذت تتوغل فى الداخل . وكما سنرى أن هذه المجموعات العربية استطاعت بمضى الوقت أن تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وعاداتها وتقاليدها وحضارتها بل وأن تندمج فى السكان الأصليين (٣) .

وأشير فى هذا المجال الى أنه فى عهد دولتى معين وسبأ (١٥٠٠ — ٣٠٠ ق.م) هاجرت أعداد غفيرة من جنوب الجزيرة العربية للقارة الافريقية

(٢) محمد صفى الدين : أفريقيا بين الدول الأوربية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٧ .

(٣) محمد صفى الدين : نفس المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٦٧ .

وتوغلت اعداد منهم الى الداخل حتى وادى النيل وتحكم المعينيون والسبئيون في التجارة فى البحر الأحمر (٤) .

وأستمر نشاط التجار العرب خلال العصور التالية ، وترتب على ذلك استمرار الاحتكاك بين العرب وبين سكان هذه البلاد وكانت له بالطبع كما سنوضح آثاره الحضارية القوية .

وفى القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميرين البحر الأحمر من اليمن وكذلك جماعة من الحضارمة واستقر بعضهم فى الحبشة وتابع البعض السير متتبعا فروع النيل الحبشية حتى انتهى بهم المطاف الى بلاد النوبة واختلط بعضهم بالبجة وتصاهروا معهم (٥) .

ولم يكن هذا هو الطريق — طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر الطريق الوحيد للاتصال بين العرب والأماركة فعبر سيناء انتقلت جماعات من العرب الى مصر متتبعة الساحل الشمالى — واندفعت جماعات منهم الى الجنوب صوب بلاد النوبة أو بلاد السودان المعروفة فى ذلك الوقت (٦) .

وبعض هذه الجماعات اتجهت غربا ثم جنوبا عبر الصحراء الكبرى وقد ثبت أن هناك طرقا تجارية معروفة عبر الصحراء وهناك مراسى صحراوية كانت معروفة للقوافل وستستخدم الطرق للتجارة بعد ذلك على نطاق واسع فى العصور الوسطى كما سنوضح ذلك بعد .

وفى فجر الاسلام أمر النبى صلى الله عليه وسلم أتباعه بالهجرة للحبشة — ولا شك فى أن ذلك يدل بوضوح على انه كانت هناك علاقات بين العرب والحبشة قبل الاسلام وكانت هذه البلاد معروفة للعرب .

وقد زادت هجرة العرب الى أفريقيا بعد انتشار الاسلام ، فقد وجدت دوافع جديدة دفعت العرب للهجرة الى أفريقيا — منها الرغبة فى نشر الدين الجديد بمبادئه واتجاهاته ، ولا شك فى أن احتكاك الأفارقة بالعرب

(4) Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan (Cambridge 1922, p. 4).

(٥) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٨ .

(٦) عباسى عمار : المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ١٩٤٢ .

المسلمين أدى لنتائج عميقة فلم يقتصر الأمر على التجارة أو المعاملات المادية بل لقد كانت لاسلوب التعامل وما حمله العرب المسلمون معهم من مبادئ يدعو إليها وينادى بها الدين الجديد — أعمق الأثر فى الأفارقة .

وحين اشتد النزاع بين احزاب المسلمين كانت بعض الأحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر الى شرق أفريقيا بالذات وتتخذ هذه الجهات موطناً لها — فبناءً على حكم عبد الملك بن مروان مثلاً هاجر بعض الأمويين الى لامو وعاشوا بها .

وقد ترتب على الهجرات العربية وعلى الاحتكاك بين العرب والأفارقة نتائج هامة سنشير إليها فيما بعد .

وبعد هذه المقدمة تنتقل الى نقطة هامة وهى :

المصادر التى نستقى منها معلوماتنا عن اثار العرب الحضارية بالذات فى انتمارة :

على الرغم من أن العرب كانت لهم أثارهم الحضارية العميقة على المجتمعات الإفريقية التى اتصلوا بها — فقد ظلت هذه الآثار بل ظلت المعلومات عن الأقطار الإفريقية المختلفة باستثناء السواحل الشمالية للقارة غير معروفة للأوروبيين حتى القرن الخامس حين بدأت أنظار الأوروبيين تتجه للقارة الإفريقية التى أطلقوا عليها القارة المظلمة لجهلهم بما فى داخلها وظلت معلوماتهم قاصرة على السواحل فلم يتعمقوا فى الداخل الا بعد فترة طويلة (٧) .

ومع ذلك فقد كان للرحالة العرب نشاط كبير فى أفريقيا خاصة فى المناطق التى كانت تستقر فيها جماعات عربية أو تقوم فيها إمارات أو سلطنات عربية .

ويضيق المجال هنا عن اعطاء معلومات وافية عن الرحالة والجغرافيين العرب الذين كتبوا عن الأقاليم الإفريقية التى تأثرت بالمؤثرات العربية لكن

(٧) عن علاقة الأوربيين بأفريقيا — والأسباب التى أدت لقصر نشاطهم فى المبدأ على السواحل الإفريقية دون التوغل فى الداخل ارجع الى : شوقى الجمل : تاريخ كئشف أفريقيا واستعمارها ، ١٩٨٠ .

نشير هنا الى بعضهم — ونفضل الحديث عن قلة منهم برزت كتاباتهم عن العلاقات العربية الافريقية واثار العرب الحضارية بالذات (٨) .

فمن هؤلاء الرحالة والكتاب العرب :

— المسعودى (+ ٩٥٦ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وأخبار الزمان .

— ابن حوقل (توفى فى القرن ١٠ م) المسالك والممالك ، صورة الأرض .

— الادريسى : صفة الغرب ، وأرض السودان ، ومصر والأندلس (لندن ١٨٩٦) .

— ابن جبير : الرحلة .

— العمرى : مسالك الأماص فى الممالك والأماص .

— ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأماص وعجائب الأسفار (بولاق ١٩٣٢) وله ثلاث رحلات هامة زار فيها سواكن ، زيلع ، مقديشيو وكلوه ، وغيرها من بلاد شرق أفريقيا كما زار مالى وغيرها من سلطنات غرب أفريقيا كما أبحر فى نهر النيجر (٩) .

— ابن خلدون : العر وديوان المبتدأ والخبر فى ٧ أجزاء (بولاق ١٢٨٤ هـ) .

— حسن بن الوزان : وصف افريقيا (١٠) . وقد قام بعدة رحلات فى شمال افريقيا والسودان الغربى بدأها فى عام ١٥١٠ م غزار مملكة مالى وبلاد الهوسا وغيرها من اقاليم غرب أفريقيا .

(٨) لمزيد من التفاصيل يرجع الى : شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ٥٨ الى ٦٥ .

(٩) انظر تعليق الكتاب الأجانب على رحلات ابن بطوطة :

Sykes, Perey : A History of Exploration (London 1949) pp. 94-95.

(10) The History and Description of Africa and of the Notable things there in cotained written by Al Hassan Ebn Mohammed wezan al Fasi Better Known as Leo Africanus (London 1896).

وقد ترجم الكتاب أخيرا للعربية .

(م ١٠ — العرب فى أفريقيا)

— السعدى (١٥٩٦ — ١٦٥٥) : تاريخ السودان (باريس ١٨٩٨) تحدث عن الدول العربية التي قامت فى السودان الغربى — مثل دولة سنفاى .

— الحبى — حديقة النظر، وبهجة الفكر فى عجائب السفر، أو سيرة الحبشة (حققها د. مراد كامل — القاهرة ١٩٥٨) وقد وصف مشاهداته عن الطرق المؤدية من شرق القارة الى عاصمة الحبشة والتأثيرات العربية على قبائل الجالا والفلاشة وغيرها .

— التونسى : تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان وقد زار دارفور ووادى — وقد نشر خليل محمود عساكر ، ومصطفى محمد مسعد رحلته الى دارفور ومُشاهداته بناء على النص العربى للمستشرق بيرون Perron بينما لم تترجم بعد للعربية رحلته الى وادى(١١) .

هذه بعض جهود العرب التى كشفت لنا عن الأثر الحضارى للعرب فى أنحاء مختلفة بشمال وغرب وشرق افريقيا .

والحقيقة أن الرحالة العرب قبل الأوربيين — زاروا الأقاليم الافريقية شمال خط الاستواء أى المنطقة من البحر الأحمر شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا ، ومن ساحل أفريقيا الشمالى الى السودان ، ولم يتوغل العرب جنوبا أكثر من ذلك بسبب العقبات الطبيعية وان كان النفوذ العربى قد وصل الى أعالى الكنفو(١٢) (دولة محمد بن حميد المرجبى — تبوتيب) كما سنشير بعد .

(١١) للتفصيل انظر :

شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٩٢ وما بعدها . أما الرحلة الى وادى فتوجد منها نسخة وحيدة بالفرنسية فى الجمعية الجغرافية المصرية .

Voyage Au Soudan Oriental - L'I Ouaday.

(١٢) ملاحظة : عثر على مخطوطة عربية هامة بعنوان « السلوة فى أخبار كلوه » لكاتب مجهول يرجح أنها ترجع للقرن ١٥ م تحدث عن كلوة والأثر العربى فى هذه المناطق — وهى الآن فى المتحف البريطانى تحت رقم ٢٦٦٦ .

انظر يواقيم رزق : محمد بن حميد المرجبى (تبوتيب) والوجود العربى فى الكنفو — رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٥ .

أما عن الرحالة الأجانب فقد بدأت رحلاتهم متأخرة بعد أن بدأ اهتمام الأوربيين منذ القرن الخامس عشر الميلادي — بالقارة الإفريقية والكشوف الجغرافية .

وفى مقدمة هؤلاء الرحالة البرتغالى فاسكو دا جاما (Vasco Da Gama) الذى اشتهر برحلته حول أفريقيا فى آخر القرن الخامس عشر فقد دهش حين وصل موزمبيق لأول مرة ووجد الناس يرتدون الملابس الحريرية الموشاة بالذهب وكانت سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالفضة ، كما شاهد المنازل العالية من عدة أدوار والتصور فى وسط المدينة وفى مالىدى استقبلت بعثة داجاما فى قصر مفروش بالسجاد ومؤثث بأثاث فاخر وقدمت له عدة هدايا فاخرة وقد أثار دهشته أن يعقد مقارنة بين ما شاهده هنا وما شاهده فى البلاد الإفريقية الأخرى التى لم يصل إليها العرب .

وقد شهد نفس الشهادة دوار بربوسا (Duarte Barbosa) وهو رحالة زار كلوه وممبسة ومالىدى ومبا وزنجبار . وتحدث البرتغاليون الذين استقروا بعد ذلك فى هذه الجهات وغيرهم من الرحالة الأوربيين الذين انفتح أمهم الطريق لهذه المناطق المكتشفة حديثا عن مظاهر الحضارة الزاهرة فى المناطق التى زاروها .

تناول بعض المؤرخين والكتاب الأجانب الجوانب الحضارية التى اطلعت عليها أوربا لأول مرة فى هذه الجهات .

ومن الذين كتبوا فى هذا المجال المؤرخ فريمان (Freeman, G.) (١٣) وكذلك رولاند (Roland, O.) (١٤) .

ولعل تعليق كوبلاند (Coubland) على كل هذه الملاحظات والمشاهد الحضارية التى أذهلت الأوربيين عندما وقع عليهم بصرهم لأول مرة — بغنى عن كل تعليق . فقد ذكر « أننا يجب ألا ندهش لما تذكره هؤلاء الرحالة من مظاهر

(13) Freeman, G: The Medieval History of the Coast of Tanganika (Berlin 1962).

(14) Roland, O. : History of East Africa 2 vols. (Oxford 1969).

الحضارة التي نقلها العرب الى شرق أفريقيا — فان العرب كانوا فى ذلك الوقت حملة لواء الحضارة ، فلا شك فى أن مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التى فى اكسفورد أو التى فى أية مدينة مسيحية أخرى « (١٥) .

وأشير انه على الرغم من أن كتابات الأجانب سواء من الرحالة أو من الكتاب والمؤرخين المتأخرين لم تنصف العرب انصافا كاملا ولم تذكر الحقيقة المجردة . لكن فلتات أقلامهم وما يمكن أن يستنتجها أى باحث منصف من هذه الكتابات يعطى صورة عن بعض الاثار التى تركها العرب فى الجهات التى وصلوا إليها فى افريقيا .

وفىما يتعلق بشمال افريقيا فاعتقد اننا لسنا بحاجة للانفاضة فى الاشارة الى الأوضاع التى ترتبت على وصول العرب الى هذه المناطق فقد ترتب على ذلك أن دخل الشمال الافريقى ضمن الدولة العربية وأصبح يمثل الجناح الغربى للامة العربية وأصبحت حضارته الافريقية العربية جزء من الحضارة العربية ومن الحضارة الافريقية .

أما عن غرب أفريقيا فان الذين زاروا هذه المناطق من الرحالة العرب— المغاربة والاندلسيين بصفة خاصة والذين ذكرنا بعضهم من قبل ، كذلك الرحالة الأجانب الذين أخذوا يتدفقون على غرب أفريقيا بعد أن استقر الأوربيون فى الساحل الغربى للقارة وأخذوا يوغلون للداخل — لمسوا ماكانت عليه هذه البلاد والسلطنات الاسلامية التى قامت فيها قبل أن تواجه هذه البلاد المستعمرين الاوربيين وستشير لذلك بالتفصيل فيما بعد(١٦) .

أثار الحضارة العربية فى أفريقيا :

كانت للاحتكاك العربى الافريقى أثار حضارية عميقة شملت كل نواحي الحياة فى البلاد الافريقية التى اتصل بها العرب وظهرت أثارها فى هذه المجتمعات الافريقية بوضوح .

(15) Coupland, R. op. cit., p. 39.

(١٦) للمزيد من التفاصيل يرجع الى :
عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا ، ١٩٦٥ .

ويمكن أن نلمس مظاهر هذا الاحتكاك الحضارى فى :

أولا - النواحي الثقافية :

انتشرت اللغة العربية كلغة للحديث وللمعاملات التجارية ، وكانت اثارها قوية وواضحة . نلمس ذلك فى اللغة السواحيلية فى شرق القارة فكثر من الألفاظ فى السواحيلية (قدرها البعض بـ ٦٠٪ من الألفاظ المستخدمة فى الحياة العامة) عربية الأصل ، واللغة السواحيلية لغة أفريقية عربية(١٧) وكذلك لغة الهوسا فى غرب أفريقيا .

وكان لانتشار الاسلام بين الافارقة اثره الكبير فى انتشار اللغة العربية لغة القرآن .

والحقيقة أن الأثر الثقافى للعرب لم يقتصر على اللغة بل امتد الى الثقافة بمعناها ومدلولها الواسع فقد أدى ذلك التغيير فى معاملات الناس وسلوكهم وفى تفكيرهم وأدى هذا الاحتكاك الحضارى لنقل ثقافات أخرى الى القارة وسكانها .

ووجدت فى شرق القارة وبطول ساحلها الشرقى مراكز ثقافية هامة فى كلوة ، وسفالة ، ومالندى وغيرها من الثغور الهامة .

وحين زار الرحالة العربى ابن بطوطة مدن الساحل الشرقى فى أفريقيا تحدث عما شاهده فى هذه السواحل وعن ثقافة الناس بها وتمسك الكثيرين بتعاليم الاسلام الى غير ذلك من مظاهر الثقافة(١٨) .

كما اشار الرحالة والكتاب الأجانب الى ذلك ، وقد سبق أن أشرت الى ما قاله كوبلاند فى هذا المجال(١٩) .

(١٧) اللغة السواحيلية نتيجة اختلاط اللغة الربية بلغة البانتو —
انظر :

Encyklopaedia Britannica vol. 21, p. 629.

(١٨) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ، ص ١٢٩ .

(19) Coupland : op. cit., p. 39.

وقد اُتسار البرتغاليون حين وصلوا الى ساحل افريقيا الشرقى الى أن المدن الساحلية التى كانت على اتصال وثيق بالعرب والمناطق التى استقروا بها تختلف مظاهر الناس بها اختلافًا واضحًا عن المناطق الأخرى ويظهر هذا الاختلاف بدرجات كبيرة كلما تعمقنا فى داخل القارة (٢٠) .

وفى غرب افريقيا وجدت مراكز ثقافية هامة مثل تمبكتو ، جنى ، وكانو ، وكاسينه وغاو .

وقد أصبحت هذه المراكز الثقافية منارات فى غرب افريقيا وتوافد عليها عدد كبير من العلماء ورجال الدين من مختلف الأقطار الإسلامية للتدريس فى المدارس التى قامت فى هذه البلاد وفى المساجد — احساسًا من هؤلاء العلماء بواجبهم تجاه اخوانهم فى هذه الأقطار الافريقية وأسهم هؤلاء فى نشر الثقافة الإسلامية والعربية بها .

كما توافد الطلاب من أبناء السودان الغربى وغيره من أقاليم غرب افريقيا الى معاهد فاس وغيرها من مدن المغرب ، وكذا الأزهر الشريف والقروان وتلمسان (٢١) .

وقد ظهرت هذه التأثيرات الثقافية والحضارية حتى فى بلاط الحكام والسلاطين . فتشبه كثير منهم بالحكام المسلمين فى باقى جهات الصائم العربى . ومن مظاهر ذلك انهم اجزلوا العطاء لرجال العلم والأدب والدين الوافدين من المغرب وغيره من الأقطار الإسلامية للاسهام فى النهضة الدينية والثقافية فى هذه البلاد . وقد أقبل الافريقيون على معاهد الدين والعلم بشغف كبير وترتب على هذا قيام نهضة علمية حقيقية اثرت فى مختلف نواحى الحياة فى غرب افريقيا ، ونشأت طبقة افريقية مثقفة بالثقافة العربية الإسلامية . والملاحظ أن كثيرين من الوزراء وغيرهم من رجال الدولة فى أقطار

(٢٠) للمزيد من التفاصيل انظر :

محمود طه أبو العلا : المؤثرات العربية فى شرق افريقيا ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، ١١ مايو ١٩٦٠ .

(٢١) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

غرب افريقيا كانوا من المسلمين — فقد أصبح الملوك يعثنون الى ان يعهدوا لهم بشئون البلاد السياسية والاقتصادية(٢٢) .

ويشير ابن بطوطة الى ان عددا من رجال العلم من مختلف الأقطار العربية كان يقيم بمدينة مالى — ومن طريف ما ذكره انه اثناء اقامته بهذه المدينة أصيب بمرض حاد فى معدته نتيجة أكله « عصيدة » مصنوعة من شئ يشبه القلقاس ولم يسعفه سوى طبيب مصرى كان مقيما هناك قدم له دواء مسهلا يسمى بيدز(٢٣) .

وقد اشتهر عن سلطان مالى السلطان أسكيا (١٤٩٣ — ١٥٢٨) حبه للعلم والعملاء فقد استقدم الكثيرين منهم ورحب بهم وأغدق عليهم من المال والهبات وأقام كثيرين منهم فى « غاو » ، و « جنة » ، و « تمبكتو » — فكان وجود هؤلاء المثقفين العرب نواة لنهضة ثقافية شملت البلاد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وأصبحت اللغة العربية بفضلهم — لغة البلاد الرسمية . وحين أدى اسيكيا محمد فريضة الحج كان بصحبته المؤرخ « محمود كعت » وقد مر بمصر وتمعرف على العالم المصرى جلال الدين السيوطى . وكان من أهم رجال العلم فى أيامه العالم الفقيه « عبد الكريم ابن محمد المغيلى التلمسانى » الذى عاش فترة غير قصيرة فى تمبكتو ، وقد أشار الرحالة الى وجود العديد من المخطوطات النادرة ببعض مكتباتها كما وجد بها نسخ متخصصون فى نسخ هذه الأصول هذا بالإضافة الى خزانة الكتب العامة التى كان يستعين بها أهل العلم والأدب فى بحوثهم(٢٤) .

ويرتبط بالتأثيرات الثقافية الناحية الفنية . والحقيقة ان دراسة الفنون فى شرق القارة وغربها لم تحظ بعد بما تستحقه من دراسة تحليلية لكن نشر هنا الى ان بعض معالم هذه الفنون تدل على المؤثرات العربية القوية — فمقصور الأمراء والحكام تدل فى هندستها ونقوشها ومعالمها وتنظيمها ومحتوياتها على أثر لعرب واثر الاسلام فيما بعد على تلك الفنون فالشمسيات

(٢٢) نعيم قداح : افريقيا الغربية فى ظل الاسلام ، دمشق ، ١٩٦٠ ،

ص ٤١ .

(٢٣) ابن بطوطة : ج ٤ ، ص ٣٩٧ .

(٢٤) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .

الزجاجية وغير ذلك من معالم الفن العربى والنظام الذى بنيت المساجد والنقوش التى استخدم فيها الخط الكوفى والخطوط الهندسية والآيات القرآنية كلها تدل على التأثيرات العربية . وقد شاع فى المدن خاصة فى غرب أفريقيا بناء الأسوار تشبها بما شاع فى البلدان العربية بالمغرب بالذات .

وفىما يتعلق بغرب أفريقيا لعل التشابه يرجع لمساهمة مهندسين مغاربة فى بناء وتشبيد هذه المساجد فقد ساهم المهندس ابراهيم الساحلى مثلا فى بناء مسجد جاكوب فى تومبكتو ومسجد آخر فى غاو كذلك ساهم فى بناء مسجد فى العاصمة نبانى وقصر به قاعة كبيرة لمجلس السلطان — وقد وصف ابن بطوطة هذه القاعة عند زيارته للعاصمة عام ١٣٥٣ م .

أما مسجد جنى فوه من تصميم المهندس أدريس المراكشى (٢٥) . وقد أشار الرحالة العرب كما أشار البرتغاليون للحياة المتحضرة التى شاهدوها فى بيوت حتى عامة الناس فى شرق أفريقيا والتى ترتفع بمراحل عن الحياة التى يعيشها الأمازيغ فى باقى المناطق التى لم يصلها العرب .

فدراسة الآثار العمرانية فى هذه المناطق بشرق القارة وغربها تكشف لنا عن أسلوب البناء الذى ساد فى هذه البلاد والذى تأثر بالاحتكاك العربى .

وفى بعض بلاد غرب أفريقيا مثل كومبى وجدت أحياء برمتها كالحى المغربى اشتهرت بمنزلها المغربية — وكان حكام هذه البلاد وشعوبها ينظرون لما يشبع فى المغرب والبلاد العربية الأخرى التى اتصلوا بها — من الوان الحضارة على أنها مثل عليا تحتذى .

ثانيا — آثار دينية :

انتشر الاسلام فى شرق القارة وفى شمالها وفى غربها ووصلت تأثيراته الى أقصى ما اتاحت العوامل الجغرافية وغيرها من ظروف الاحتكاك بين العرب والأمازيغ .

وترتب على انتشار الاسلام خلق مجتمع جديد يدين بمبادئ جديدة - حقيقة أن الاسلام - لم يهدف الى تغيير التقاليد الافريقية المحلية تغييرا جذريا الا ما يتعارض منها مع تعاليمه ومبادئه - لكن ترتب على الاحتكاك بين سكان هذه البلاد وبين العرب المسلمين - نوع من الامتزاج بين التقاليد الاسلامية الوافدة وبين التقاليد الافريقية المحلية وتمت الملاءمة بين هذين العنصرين وظهرت في المجتمع الافريقي تقاليد اسلامية افريقية .

ولعل ما عرضه - الرحالة من امثال ابن بطوطة والقلقشندي وغيرهما من نماذج للحياة في هذه البلاد وما كتبه المؤرخون الانبارقة مثل السعدى ومحمد وكعت وغيرهما يملأ فكرة عن التقاليد والنظم التي شاعت في المجتمع الافريقي في هذه البلاد .

والمعروف أن الوثنيين كانوا يعيشون في وئام مع المسلمين حتى أن المسلمين كانوا يقيمون مراكز تجارية داخل التجمعات الوثنية دون خوف .

ولا شك في أن المسلمين في شرق أفريقيا وغيرها بانباعهم تعاليم دينهم ومبادئه أثروا عن طريق مباشر أو غير مباشر في المجتمعات التي عاشوا فيها - فقد لمس الانبارقة في معاملاتهم مع العرب المسلمين ما كان هؤلاء يحرصون عليه من تعاليم الاسلام وما يدعو اليه من الأمانة والصدق والعدل . وكان لهذا أثره الواضح في المجتمعات التي حلوا بها والتي تعاملوا معها وسنشير لذلك بتفصيل فيما بعد عندما نتعرض للاثار الاجتماعية .

كذلك كان المسلمون في شرق القارة وغربها حريصين على أداء الفرائض ومنها فريضة الحج . وكان الحج ومازال أهم العوامل التي تيسر فرصة الالتقاء بين الأفراد والجماعات والتبادل الفكري والثقافي - وتذكر لنا المراجع مثلا أن سلاطين الدول الاسلامية في غرب أفريقيا وشعوبها كانوا حريصين على أداء فريضة الحج رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق لطول الطريق ووعورته ، وكانت هناك طرق معروفة تطرقها القوافل التجارية ، وفي الطريق الى الأراضى الحجازية(٢٦) .

(26) Anta Diop. L'Afrique Noire Pré - Coloniale (paris 1952).

(الفصل الثانى على الخصوص والكاتب سنغالى وهذا يوضح أهمية الكتاب) .

ومن هذه الطرق :

(أ) طريق صوب الشمال عبر الصحراء الى ساحل البحر المتوسط
ثم الاتجاه شرقا تجاه مصر ومنها عبر البحر الأحمر الى الحجاز .

وبعنى القبائل خاصة قبائل الهوسا — كانت تفضل طريق تمبكتو —
جاو — غات — غدامس — طرابلس لأنه كان آمنا ، كما كان يتيح لهم فرصة
التجارة فى أثناء الطريق .

(ب) طريق صوب الشرق — الى السودان وادى النيل — ثم ساحل البحر
الأحمر فالحجاز .

أما فيما يتعلق بالمسلمين فى شرق القارة فقد كانت الرحلة بالطبع أيسر
وقد اعتادوا عليها من زمن .

لكن مهما يكن من أمر فإن رحلة الحج كانت بالغة الأثر فى نفوس
المسلمين الأفارقة وكانت فرصة نادرة للالتقاء وباتى المسلمين فى الأقطار
المختلفة وكانت تعنى تأكيد روح الاخوة الاسلامية التى يوجبها الاسلام .

وكما يقول ترمينجهام (Trimingham) ان شعورا بأن الاسلام دينانة
الأفارقة جميعا — كان يملك المسافرين من الأفارقة فى رحلة الحج « (٢٨) .

ومن أشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين التى سجلها التاريخ وفد
الحجاج الذى كان على رأسه منسى موسى — سلطان مالى (٧٢٤ هـ /
١٣٢٣ م) والذى يقال انه كان يضم أكثر من عشرة آلاف حاج ، وقد مر بمصر
فى طريقه الى الحجاز فى عهد السلطان المماوكى الناصر محمد بن قلاوون —
والذين تحدثوا عن هذا الركب يعطون لنا صورة لعل فيها شيئا من المبالغة —
لكنها لا تخلو من الحقيقة . فقد أحاط هذا السلطان نفسه بمظاهر الترف
والاسراف فى مصر وحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام ، حتى قيل انه

(٢٧) السعدى ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدى : تاريخ
السودان ، طبعة هوداس ، ١٨٩٨ ، ص ١٦ .

(28) Trimingham, J. Spencer : Islam in west Africa (Oxford
1964) p. 88.

لم يدع أمرا من أمراء الممالك فى مصر ولا رب وظيفة سلطانية الا وحمله بحمل من الذهب كما أماض من هباته على الفقراء فى الأراضى الحجازية ، ومنح عن سعة حتى قيل ان قيمة الذهب انخفضت انخفاضا ملحوظا لكثرة ما أنفقه (٢٩) .

ويرتبط بالأثار الدينية للعرب فى افريقيا انتشار الطرق الصوفية وعلى الأخص القادرية ، والتيجانية ، وقد زاد عدد اتباع هذه الطرق الصوفية ولا سيما بين المشتغلين بالتجارة ومن العلماء والفقهاء — ولعب أتباع هذه الطرق دورا دينيا وسياسيا هاما كان كبير الأثر فى تاريخ وحضارة هذه البلاد ونهضتها فقد أصبح كل مسلم تقريبا يرى لزاما عليه أن يرتبط بأحدى هذه الطرق الدينية .

وأقام أتباع هذه الطرق الزوايا للعبادة ، ولإيواء الوافدين المحتاجين للمأوى والطعام وللاعتكاف بعيدا عن زخرف الحياة وملذاتها للدرس والتفقه فى شئون الدين ، وكانت لكل طريقة تنظيماتها وأعضاؤها وعلى رأسهم شيخ الطريقة .

وقد انتشرت القادرية بالذات فى السودان الغربى وانتشر اتباعها من الفقهاء والمريدين من السنغال الى مصب النيجر وفى بلاد الهوسا (٣٠) .

أما التيجانية فقد انتشر أتباعها فى حوض السنغال وفى تمبكتو (٣١) .

وانتشرت هذه الطرق أيضا فى شرق أفريقيا بل ان شرق أفريقيا وقربه

(٢٩) العمرى : مسالك الامصار ، ص ٩٤٣ وما بعدها .
وابن الوردى : ذيل المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .
(٣٠) انظر محمد بلو : انفاق الميسور فى أخبار بلاد التكرور ، مخطوط
بوئائق الرباط تحت رقم ٢٣٨٤/ك ، ص ٢٠٣ .
(٣١) أبو العباس أحمد بن أحمد العباسى : كشف الحجاب على من
تلقى مع التيجانى من الاحباب ، فاس ١٣٢٥ هـ ، وكذلك :
جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى منفى الشيخ التيجانى (المعروف
بالكنائس — القاهرة ١٣٤٥) .

وللمزيد من التفاصيل عن القادرية والتيجانية يرجع الى : شوقى الجمل :
الحضارة الاسلامية العربية فى غرب افريقيا سماتها ودور المغرب فيها ،
بحث منشور بمجلة المناهل المغربية ، نوفمبر ١٩٧٦ ، ص ١٣٢ الى ١٦٣ .

من الحجاز أتاح الفرصة لانتشار الطرق المختلفة التي بدأت نشاطها في الحجاز وانتقلت بعد ذلك الى القارة الافريقية حيث كانت البيئة صالحة لانتشارها ولاكتسابها اتباعا ومريدين .

ولقد لعبت الطرق الصوفية واتباعها دورا هاما وخطيرا في مقاومة الاستعمار الأوربي وان كان هذا الدور لم يكشف عنه النقاب تماما الى الآن اذ أن اتباع هذه الحركات والمريدين الذين التفوا حولهم اعتبروا الجهاد السياسي المتصل بالوطن وحرية والوقوف في وجه اعدائه والمغتصبين . — جزءا من واجبهم لا ينفصل عن الجهاد في سبيل نشر الدين . فمعظم المراجع الأجنبية تعالج الأمر على أنه ثورات بين أفراد خارجين على القانون وعلى النظام — فواجبنا يحتم أن نضع هذه الحركات الوطنية في مكانها الصحيح . وقد أدى تبني هذه الحركات لقضية الجهاد الوطنى الى شعبيتها واندفاع الشباب بالذات للانضمام اليها .

وقد انتشرت هذه الحركات في شرق افريقيا — كما انتشرت في غربها وأصبحت من أهم مظاهر الانتفاضات الوطنية في القارة . ولعل حركة محمد بن عبد الله حسن بطل الصومال تعتبر مثلا قويا لهذه الحركات في شرق افريقيا(٢٢) .

كما أن الحركة السنوسية ودورها في مقاومة الاستعمار الإيطالي في ليبيا مثل آخر لدور هذه الحركات ضد القوى الاستعمارية التي استباحت القارة الإفريقية(٢٣) .

وفي غرب افريقيا تعتبر حركة الحاج عمر التيجانى زعيم السودان في القرن التاسع التى أطلق عليها حركة العمرية — مثلا آخر(٢٤) .

(٢٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الحركة يرجع الى :
محمد المعتصم سيد : مهدى الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار
(ه . ت) ،

ابراهيم عبد المجيد محمد : الاستعمار البريطانى في الصومال ،
(١٨٨٤ — ١٩٢١) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث الافريقية
بجامعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

(٢٣) محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة ، القاهرة ١٩٤٥ .
(34) Dubois, F. : L' Islam Noir (Paris 1899) p. 60.

كذلك دور سامورى فى مكافحة الاستعمار الفرنسى فى غرب افريقيا
مثلا آخر لهذه الحركات ووقونها فى وجه الاستعمار الأوربى (٣٥) .

ويرتبط بالأثر الدينى لهذه العلاقات العربية الافريقية قيام الحركات
الاصلاحية فى شرق القارة وفى غربها وكان على رأس هذه الحركات زعماء
تحمسوا لنشر الاسلام ولارشاد الناس لحقائقه ولتخليص الدين مما علق به
من شوائب وقد استطاع هؤلاء الزعماء ان يجمعوا حولهم عددا كبيرا من
الأتباع والمريدين لما رأوا فيهم من التقوى والصلاح .

وقد تبلورت جهود هؤلاء المصلحين واتباعهم فى مجالين :

المجال الأول : مجال الوعظ والارشاد والتأليف — فتركوا لنا ثروة كبيرة
من مؤلفاتهم فى مختلف الفروع الدينية والعلمية كالتفسير والفقه وشرح
الاحاديث النبوية والتصوف والعقائد واللغة والشريعة الاسلامية وغير ذلك
من ضروب العلم والمعرفة .

ولا شك فى ان هذه الثروة التى فقد الكثير منها للأسف ، كما نقل
المستعمرون الأجانب جزءا هاما من هذا التراث الى مكتبات بلادهم — فيما
عدا الباقى وهو عدد غير قليل ايضا لازال مخطوطا حبيس دور الوثائق .

أما المجال الثانى : فهو مجال الجهاد وكما ذكرنا سابقا — لم يكن من
المتن الفصل بين حركة الاصلاح الدينية وحركة الجهاد المسلح لاعلاء شأن
الاسلام فى المناطق المختلفة من شرق افريقيا وشمالها وغربها التى تعرضت
للاستعمار الأوربى .

هذا وأشار الى أن المصلحين فى افريقيا ركزوا بالذات على التغييرات
التي كانت سائدة فى المجتمع الافريقى مثل التقاليد المتبعة عند ولادة الطفل
أو عند الزواج أو الوفاة وسنشير لذلك فيما بعد عند دراسة الآثار الاجتماعية .

وأشير هنا الى أننا لا يمكن هنا أن نستطرد فى ذكر بعض الحركات

(٣٥) لمزيد من التفاصيل يرجع الى :

نصر الدين رشوان حسن : دولة سامورى فى غرب افريقيا ١٨٧٢ —

١٨٩٨ ، رسالة دكتوراه من معهد البحوث الافريقية ، ١٩٧٨ .

الإصلاحية فى شرق القارة أو شمالها أو غربها لكن من يريد التركيز على بعض هذه الحركات أو التوسع فى دراستها فالمجال واسع أمامه (٣٦) .

ثالثا — آثار اجتماعية :

آثر العرب والإسلام تأثيرا قويا فى المجتمعات الإفريقية التى احتك بها العرب . وقد آثرنا الى دور المصلحين الذين ظهروا فى المجتمعات الإفريقية والذين دعوا لإصلاح ما وجدوه من انغماس الناس فى كثير من الأمور التى ينهى عنها الإسلام .

ووصل الأمر الى شن حروب جهادية للوقوف فى وجه تيار العادات التى استمر الناس يمارسونها رغم أنها لم تكن تتلاءم مع تعاليم الإسلام ومع الوضع الثقافى والحضارى الجديد .

ولقد آثرت الثقافة العربية والدين الإسلامى على المجتمعات الإفريقية بما أدخلته من مفاهيم جديدة آثرت تلقائيا فى المفاهيم الاجتماعية وفى التقاليد والعادات التى ارتبطت بمختلف المناسبات .

وقد امتص الإفريقيون الكثير من معتقدات الإسلام . بالطبع لم يكن التغيير كاملا أو جذريا لكن حدثت تغييرات كبيرة — فمثلا فى بعض البلاد الإفريقية كانت هناك مجتمعات أموية (تنتسب الى الأم) تغير هذا كما نفذت قوانين الوراثة لتساير الشريعة الإسلامية . والتغيير كما قلنا لم يحدث فجأة .

فإذا أخذنا مثلا قرية من قرى الهوسا فى غرب إفريقيا وحاولنا دراسة

(٣٦) تعددت حركات الإصلاح خاصة فى غرب إفريقيا وقد آشتهرت منها مثلا حركة عثمان بن فودى الذى أستطاع أن يقود قبائل الفولانى ويؤسس سلطنة تنبكتو التى لعبت دورا هاما فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا . انظر : Dubois, F. : Tomboctou, Le Mystérieuse (Paris 1899) pp. 152—153.

ملاحظة : قام كاتب هذا البحث بنشر عدة بحوث عن دور بعض رجال الإصلاح فى غرب إفريقيا من أمثال أحمد بابا التمبكتى السودانى وعثمان بن فودى وغيرهما وذلك فى مجلة المناهل المغربية ومجلة البحث العلمى التى يصدرها المركز الجامعى للبحث العلمى بالرباط .

حياة الناس فيها وتقليدهم ومثلهم نجد أن الكثير مما يجرى فى حياة الناس اليومية يرجع لأساس قديم سابق للإسلام ، بينما لو ذهبنا الى قرية من قرى التوكولور مثلا نجد القانون الإسلامى سائدا على نطاق أوسع .

لقد سما الإسلام بكثير من معتقدات الأفريقى وعدل من سلوكه فقبل الإسلام مثلا كان شائعا عندهم تقديم الضحايا وغير ذلك من وسائل ارضاء القوى الخفية — أما فى ظل الإسلام وتعاليمه — فالصدقة ، والزكاة ، والصيام فيها معنى التضحية ونكران الذات ، ولذا لم يكن صعبا على الأفريقى أن يدرك هذه القيم ، وأن يعدل من سلوكه حسب تعاليم الدين الجديد (٣٧) .

ولعل أهم أثر للإسلام فى المجتمعات الأفريقية هو الإحساس بأن الجميع يعبدون الها واحدا وهذه الوحدة الاجتماعية تزكيا أكبر ممارسة للجميع لفرائض واحدة .

ولا شك فى أن البناء الاسرى فى المجتمع الأفريقى قد تأثر بتعاليم الإسلام ومبادئه . وبالطبع لا يمكن أن نتوقع أن القانون الإسلامى النموذجى هو الذى يمكن أن يسود — لكن لا شك فى أن التغيير الذى حدث كبير ، والصراع بين القديم والجديد ظل فترة غير قصيرة مستمرا .

ويشير ترمنجهام الى ذلك بوضوح حين يتحدث عن الثنائية التى تتضح فى المجتمعات الأفريقية فهناك نظم اسلامية صرفة جنبا الى جنب مع تقاليد ترجع الى ما قبل الإسلام ، وتختلف قوة كل من العاملين فى المدن عنها فى المجتمعات الزراعية أو الريفية .

رابعا — أثار اقتصادية :

بدأت علاقات غرب شبه الجزيرة العربية بشرق أفريقيا علامات تجارية كما ذكرنا من قبل — وتطورت هذه العلاقات التجارية ونمت واتسعت ، وكانت للعرب فى شرق أفريقيا شهرة واسعة فى الاتجار فى الذهب وغيره

من الموارد الإفريقية وتبادلها بالسلع التي يحتاجها الأفارقة - وقد اشتهر ميناء سوفالة (Sofala) بالذات كميناء لتصدير الذهب (٢٨) .

ويذكر ابن بطوطة مثلا أنه في مقديشيو كانت تقوم صناعة نوع من الأقمشة الدقيقة التي تصدر لمصر ، كما يذكر الإدريسي أنه سمع أن في مالندي وسفالة توجد مناجم للحديد مستفلة كما أن العرب المهاجرين أدخلوا في هذه الجهات زراعة البرتقال والفواكه الأخرى بالإضافة إلى البلح والبقول وغيرها من الزراعات فكانوا يزرعون هذه الفواكه والخضروات بجوار مجارى المياه وفي المدن الحديثة التي أنشأوها - هذا بالإضافة إلى تربية الماشية والأغنام .

وحين زار ابن بطوطة كلوة ، ومهيسة ، ومقديشيو سنة ١٣٣٣ أبدى دهشة من حالة الرخاء السائدة في هذه المناطق (٢٩) .

وفيما يتعلق بغرب أفريقيا منذ أن استقر العرب في شمال القارة ووصلوا إلى أقصى غرب القارة كثرت رحلاتهم إلى غرب القارة ونضاعفت هذه الرحلات وانتظمت ووجدت طرق معروفة تخترقها القوافل إلى مناطق الذهب والملح وغيرها من الموارد المتوفرة في غرب أفريقيا والتي كانت الحاجة لها ماسة .

ويشير بوغيل (Bovill) إلى رحلات أهل المغرب بالذات وتجارتهم فقد كثرت رحلاتهم للحج والتجارة وغير ذلك وقد أمدنا هؤلاء بمعلومات طيبة عما بداخل القارة وعن المحطات التجارية وغيرها ، فنحن ندين بمعلوماتنا المبكرة لفئة قليلة من المؤلفين والرحالة من أهمهم المسعودي ، وابن حوقل ، والبكري ، والإدريسي ، وياقوت ، والعمري ، وابن بطوطة ، وابن خلدون (٤٠) .

(38) Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodesio From Earliest Times to the Referenoum (London 1966) p. 25.

(٣٩) انظر الرحلة :

(40) Bovill, E. W. : Caravans of the old Sahara (Introduction to the History of the westlrm Sudan 1933) p. 6.

ولا شك في أن التجارة والاسلام في غرب أفريقيا مرتبطان كل الارتباط فقد لعبت التجارة دورا هاما في نشر الاسلام والثقافة العربية في غرب القارة برغم العقبات الطبيعية التي كانت تعوق الوصول الى قلب القارة — فقد كانت هناك مراكز تجارية بمثابة الموانئ يتطلع اليها المسافرون عبر الصحراء حيث يجدون نبض الحياة فيستريحون ويستبدلون الجمال الضعيفة المنهكة بغيرها ليستطيعوا مواصلة الرحلة ، وفيها يحدث التبادل التجاري وكانت بحيرة تشاد نفسها حلقة هامة من هذه السلسلة من طرق الاتصال(٤١) .

فالنيجر ينحني انحناء عظيمة صوب الشمال ويقترب من الصحراء ، وهذه الصحراء لا تتصل مباشرة بساحل المحيط — لكنها تترك سهلا ساحليا جعل الاتصال عبره ممكنا بين الشمال والجنوب ، وعبر هذا الطريق اتصل عرب المغرب بالسهل الخصيب الواقع جنوب الصحراء الكبرى وكانت التجارة من أهم دوافع الاتصال بين الاقليمين .

وكان لعرب شمال افريقيا دور هام في هذه التجارة ، وكان ملح الطعام الذي يستخرج من مناجمه الواقعة جنوب الغرب الأقصى — من السلع الهامة التي يحتاج اليها الامارة في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء هذا بالاضافة الى النحاس ، والمنسوجات والتمر والعقود والحلى ، وكانوا على استعداد لمبادلة هذه السلع بالذهب والمحاصيل الافريقية الرعوية او الاستوائية التي وجدت طريقها الى البحر المتوسط واوربا على يد التجار المغاربة على الخصوص ويكفي أن نذكر أن هذه البلاد انفردت لفترة طويلة بثروتها الذهبية فقد كانت المصدر الرئيسي لذهب العالم الى أن اكتشفت مناجم أمريكا الجنوبية والهند وجنوب افريقيا(٤٢) .

وقد نجح العرب والتجار على وجه الخصوص في نشر الاسلام في هذه البلاد التي تاجروا معها فكان انتشاره سريعا وهادئا دون اللجوء للعنف عبر هذه الطرق التجارية الممتدة من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى أو على

(٤١) ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام ، مترجم ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ .

(42) Fage V. W. : An Introduction to the History of west Africa (Cambridge 1959) pp. 9-10.

(م ١١ — العرب في أفريقيا)

طول المحيط الأطلسى الى بلاد السنغال وأعلى النيجر ومنطقة بحيرة تشاد .
وساهم تجار الفولاني ، والحوصا ، والتكرور المسلمون أيضا بدور كبير فى
هذا المجال وأدى هذا لازدهار التجارة ونموها .

وكان التجار المسلمون فى تنقلهم بين المراكز التجارية يحتكون بباقى
الأفارقة ويؤثرون فيهم — بسلوكهم الشخصى وامانتهم ونظافتهم ، وكثيرا
ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثيرين منهم فى الاسلام ، وعدد غير قليل من
هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعلم فاذا ما استقر بهم المقام أنشأوا
حلقات لتعليم القرآن أو العبادة وقاموا بمزاولة النشاط التعليمى والدعوة
لاتباع مبادئ الاسلام بجانب نشاطهم التجارى . ولذا تركز الاسلام على
الخصوص فى المبدأ فى المراكز التجارية ومنها انتشر لمناطق متعددة أخرى
وهكذا دخل الاسلام الى كثير من بلدان غرب أفريقيا فى ركاب التجار ونتيجة
لنشاطهم فقد أصبح الاسلام كما يقول ترمنجهام « بمثابة تصريح مرور لمن يريد
الاتجار بنجاح مع الامارات التى نشأت فى افريقية الغربية » (٤٣) .

وقد ساعد قيام ممالك اسلامية قوية فى غرب افريقيا على استتبابه
الأمن مما أدى لازدهار التجارة التى أصبحت تلعب دورا هاما ورئيسيا فى
اقتصاد هذه الممالك .

فى مملكة مالى مثلا — يقدر نيام جبريل (Niam, Djibril)
عدد الجمال التى كانت تستخدم فى عمليات التبادل التجارى عام ١٣٥٠ بما
لا يقل عن ١٢٠٠٠ جملا . وعند حديثه عن اقتصاد مالى يذكر أن تجارة
التوافل كانت تقوم بدور هام فى اقتصاد المملكة وأن عددا كبيرا من البربر
والطوارق كانوا يشتركون فى عمليات التبادل التجارى (٤٤) .

ومن القبائل العربية التى لعبت دورا هاما فى التجارة عبر الصحراء
وكان لها فى ذلك شهرة — قبائل صنهاجة ولتونة ومسوفة ، وجدالة .

(43) Trimingham : op. cit., p. 26.

W

(44) Niam, Djibril : L' Empir de Mali (Conakry 1948).

ومؤلف هذا الكتاب غينى وله عدة كتب عن تاريخ غرب افريقيا تتميز
بالدقة والاصالة .

والحقيقة انه يمكن القول بأنه اذا كانت التجارة قد أسهمت فى نشر الاسلام — فقد أدى انتشار الاسلام الى مضاعفة النشاط التجارى ، فقد تغيرت نظرة الأفارقة الى الزراعة ، كما أصبحت للتجارة مكانة خاصة ووجدت طبقة جديدة من التجار العرب والأفارقة فى كل من غانة ومالى وغانو — وأدى ذلك التبادل الى نشر ونمو المدن التجارية الكبرى مثل كومبى ، وتمبكتو ونيانى ، وجنة ، وغانو . وكانت كبارة ميناء تومبكتو الحبرى والتجارى ملقى البضائع القادمة من شمال افريقية ومنها توزع الى مالى ، والنيجر الأعلى ، والداهومى كما تصل اليها البضائع الافريقية المنقولة عبر نهر النيجر فى طريقها الى شمال أفريقيا حيث قامت المدن التجارية فى المغرب والقيروان وتونس وطرابلس وأصبح التجار يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع الافريقى بل ان بعض القبائل الافريقية اتخذت التجارة حرفة رئيسية عرفت بها وأصبحت فى المدن التجارية الهامة احياء خاصة للتجار العرب يقيمون فى دور بها بنوها فوق مستودعات بضائعهم ، وحرص هؤلاء على أن يتعلم أبناءهم فى المدارس والمساجد مع زملائهم الأفريقيين(٤٥) .

والحقيقة ان الذين كتبوا عن قصة التجارة فى شرق افريقيا وفى غربها وبين شمال وغرب القارة ووسطها وما كان يتم فى هذه الرحلات التجارية يعطينا صورة رائعة لأثر الاحتكاك البشرى والحضارى والثقافى عن هذا الطريق .

فابن بطوطة مثلا يتحدث عن الطرق التجارية والآبار حيث يرتوى المسافرون ويستقرون وحيث كانت قوافل التجار تقيم فى ضيافة التجار المحليين أو الشيوخ أو تكترى مسكنا تقضى فيه أيام الاستراحة — وتكون مناسبة لتبادل المنتوجات وشراء لوازم السفر ، كما يذكر أن الامتزاج كان على أشده بين الأفارقة والتجار العرب الذين كانوا وسطاء فى العمليات التجارية كما كانوا يقومون بالترجمة والسمسة ويعملون كأدلاء وحراس فى الصحراء ، ويشير بالذات الى الكرم العربى الذى هو صفة من صفات العربى وكيف كان يظهر فى هذه المناسبات بأعلى مظاهره التى قد تصل الى حد المبالغة فى اكرام الغرباء(٤٦) .

(٤٥) نعيم قداح : مرجع سابق ، ص ١٢٥ وما بعدها .
(٤٦) رحلة ابن بطوطة : دار التراث — بيروت ١٩٦٨ ، ص ٦٥٨ وما بعدها .

ويتحدث البكرى عن نفس الشيء ويشير الى شبكة الطرق الصحراوية التى انتشرت فى غرب افريقيا بالذات ويعطى تقديرات تقريبية للمسافة التى تستغرقها الرحلة فى كل مرحلة من مراحلها (٤٧) .

وقبل أن تزدهر التجارة الافريقية على ايدى العرب كانت طريقة المبادلة هى السائدة لكن العرب أدخلوا النقود الى جانب القطع الذهبية المسكوكة ، وقد وجدت فى القصر الملكى فى مالى ، وفى غاو قطع نقدية مغربية ومصرية . ويشير Anta Diop فى حديثه الطويل عن التجارة فى غرب أفريقيا الى أن الأسر المالكة فى غرب أفريقيا أصبحت تشتري حاجاتها من منسوجات وتحف وغيرها من المغرب وبلدان شمال أفريقيا الأخرى مباشرة أو عن طريق التجار العرب ، كما يشير الى أن التجار الأفارقة قلدوا ما كان سائدا فى البلاد العربية ، من اقامة بعض الأسواق فى مدن معينة فى أيام معلومة ، كما يشير الى أن حكام هذه البلاد — حتى من لم يعتنق الاسلام منهم اضطروا خاصة فى المدن التجارية الى اقامة قضاء اسلامى يحكم حسب الشريعة الاسلامية وذلك للفصل فى القضايا التى تتعلق بمصالح التجار المسلمين حرصا منهم على أن يشعر هؤلاء بالطمأنينة فى معاملاتهم التجارية (٤٨) .

خامسا — آثار سياسية :

لا شك فى أن من أهم الآثار الحضارية التى تترتبت على الاحتكاك العربى الأمريقى التغييرات السياسية التى طرأت على البلاد الافريقية شرقها وغربها .

وفى شرق القارة — أشرنا الى أن العرب بعد أن استقروا فى أماكن معينة بالشاطئ نجحوا فى تكوين امارات عربية ، وأصبحت هذه الامارات العربية تجمع فى أنظمتها بين أشياء أفريقية أصيلة وبين أشياء عربية

(٤٧) البكرى ، أبو عبيد الله : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (نشر دى سلان الجزائر ١٨٥٧ مشتق من كتاب المسالك والممالك) .
(Anta Diop : op. cit. (48)

(الفصل الثانى على الخصوص) .

اسلامية لكن مما لا شك فيه ان العرب المهاجرين الى شرق افريقيا قد حملوا معهم حضارتهم الزاهرة .

ويذكر كوبلاند أن الرحالة العرب والأجانب على السواء الذين زاروا الإمارات العربية في شرق افريقيا تحدثوا عما رأوه بهذه الإمارات من مظاهر الحضارة والرقى .

ولا شك في أن النظام السياسى والادارى الذى ساد فى الإمارات العربية بشرق افريقيا تأثر فى جوهره بما اعتاده العرب فى بلادهم من نظام قبلى أو شبه قبلى — فالأمر كان بمثابة شيخ القبيلة وكان يساعده جماعة من صفوة القوم فى الإمارة .

على أن الملاحظ أن العرب فى شرق افريقيا كونوا إمارات متفرقة فلم تتكون إمبراطورية عربية متحدة مثلا ، ولو أنه فى فترات متقطعة كانت لإمارة أخرى من هذه الإمارات سيادة على منطقة واسعة تشمل عدة إمارات — فمثلا فى نهاية القرن الخامس عشر لما جاء البرتغاليون لشرق افريقيا كانت لإمارة كلوة السيادة على الجزء الجنوبى من الساحل ، ولما وصل فاسكو دا جاما الى موزمبيق وجد أن حاكم المدينة كان نائبا عن سلطان كلوه ، وكان يجبى الضرائب لحسابه على السفن التجارية التى ترد للمدينة — وكانت هناك علاقة مصاهرة بين سلطانى كلوه ، وممبسة إذ أن هذا الأخير كان متزوجا من ابنة سلطان كلوه .

وهكذا كان لأمراء كلوه شىء من السيادة سواء عن طريق السياسة أو المصاهرة على جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقى وان لم تكن لهم سيادة كاملة بالمعنى الذى نعرفه .

وهكذا استطاع العرب أن يوجدوا فى شرق القارة تنظيمات ادارية قبل أن تفتتح عيون الأوربيين للقارة الافريقية .

واشير الى أن الأئمة فى عمان على الخصوص استطاعوا أن يمدوا سلطانهم على الشمال الشرقى من أرض الصومال حتى نهر روفرما وأن يقيموا فيها إمارات تابعة لهم وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية

فى ممبسة وزنجبار وغيرها من المناطق الهامة (٤٩) .

أما فيما يتعلق بغرب أفريقيا فتد تكونت ممالك وامبراطوريات فى المنطقة الشاسعة التى تطل على المحيط الاطلنطى غربا وخليج غينيا جنوبا وتحدها الصحراء الكبرى شمالا .

ومن هذه الامبراطوريات امبراطورية غانا وامبراطورية مالى ، وامبراطورية سنفاى ، وامبراطورية كانم ، وبرنو .

وقد كان لكل منها نظامها الادارى كما كانت لها علاقاتها الوطيدة بالبلاد الاسلامية الأخرى فى شمال أفريقيا ومصر وأخذت من النظم السائدة فى هذه البلاد وتأثرت بها .

وقد كانت للأحداث السياسية فى هذه الدول العربية أصدائها فى هذه الدول الافريقية المتصلة بها (٥٠) .

ولابد من الاشارة فى النهاية الى أن العرب كان لهم دورهم البارز فى انكفاء الروح الوطنية فى هذه الامارات والسلطنات فى شرق القارة وغربها وظهر ذلك بوضوح حين واجهت هذه البلاد موجة الاستعمار الأوروبى فوقفت تدافع عن كيانها وقاومت الاستعمار قدر طاقاتها وظهرت فيها بطولات عربية وافريقية وقد سبق أن اشرنا لبعض هذه الشخصيات التى برزت فى ميدان الكفاح ضد الاستعمار .

من هذا العرض نتضح الحقائق الباتية :

ترجع علاقة العرب بافريقيا الى أقدم العصور ، ساعدت على ذلك عوامل جغرافية وعوامل اقتصادية وعوامل تاريخية ، واعطى الاسلام دفعة كبيرة لهذه العلاقات . وقد كانت لهذا الاتصال العربى الافريقى آثار ونتائج

(٤٩) للمزيد من التفاصيل عن هذه الامارات العربية بشرق افريقيا يرجع : شوقى الجمل : تاريخ كئشف افريقيا واستعمارها ، ١٩٨٠ ، ص ٥١ وما بعدها .

(٥٠) لمن يريد تفاصيل عن النظم السياسية والادارية فى هذه الدول بافريقيا الغربية يرجع الى : عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية بافريقيا الغربية ، ١٩٦١ .

حضارية ظهرت أثارها فى المجالات المختلفة الثقافية ، والدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية .

وقد لمس ذلك الرحالة العرب بالاضافة الى الرحالة والكتاب الأجانب .

وقد ذهل الرحالة الأجانب حين جاءوا لأول مرة الى شرق القارة أو غربها وتوغلوا فيها فوجدوا امارات وممالك على قدر كبير من التحضر وقد ظلت هذه الحضارات زاهرة الى أن نكبت القارة بالمستعمرين الاوربيين .

وقد حاول الاستعمار أن يقضى على هذه الحضارات الافريقية العربية وأن يفرض على شعوب القارة حضارته ، ولا شك فى أن من واجب الأفرقة بعد أن استعادوا حريتهم واستقلالهم أن يستعيدوا وجههم الحضارى الاصيل المتمثل فى اللغة والثقافة والتقاليد والعادات . ولا يعنى هذا عدم الأخذ بالفيد والملائم من حضارات الشعوب الأخرى .